

التعليم في شبه الجزيرة العربية (الحجاز)
في القرنين الخامس والسادس الهجري

**Education in the Arabian Peninsula
(Hijaz) in the Fifth and Sixth Centuries**

a . t Yassir Hatam Alewi

م.م ياسر حاتم عليوي

تاريخ اسلامي

Islamic History

مديرية تربية بغداد / الكرخ _ ٣ Third Karkh



Education Directorate

الكلمات المفتاحية : - التعليم , مكة المكرمة , الكتاتيب , الحلقات العلمية , المسجد , المدارس

Keywords: - Education, Mecca, Kuttabs, Scientific circles, Mosque, Schools

الملخص

كان التعليم في شبه الجزيرة العربية في القرون القديمة يكاد يكون معدوماً , لكن بعد مجيء الدين الإسلامي فقد انتشر التعليم في الحجاز بشكل كبير وسريع في نفس الوقت كما أكد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) على التعلم والتعليم , وإن نزول القرآن الكريم وضرورة حفظه ومدارسته كان حتمياً على كل مسلم ومسلمة لذلك ظهرت حاجة ملحة إلى التعلم , ومع ذلك ضل التعليم محدوداً على حلقات العلم في المساجد إلى منتصف القرن الخامس الهجري . حيث ظهرت البذرة الأولى لتأسيس مدارس علمية أخذت على عاتقها تعليم الأجيال مستفيدة من حلقات المساجد الدينية , وفي القرن السادس الهجري كانت المدارس قد تطورت بشكل سريع وتأسس عدد منها أهمها مدرسة الأرسوفي في باب مكة المكرمة , متأثرين بالمدارس العريقة التي ظهرت في بقية المناطق خاصة العراق حيث المدرسة النظامية التي أسسها نظام الملك السلجوقي .

Abstract

Education in the Arabian Peninsula in ancient centuries was almost non-existent, but after the advent of Islam, education spread in the Hijaz in a large and rapid way at the same time, as the Prophet Muhammad (peace be upon him) emphasized learning and teaching, and the revelation of the Holy Quran and the necessity of memorizing and studying it was inevitable for every Muslim man and woman, so there was an urgent need for learning. However, education remained limited to science circles in mosques until the middle of the fifth century AH. Where the first seed of establishing scientific schools appeared, which took upon themselves the education of generations, benefiting from the religious circles of mosques. In the sixth century AH, schools had developed rapidly and a number of them were established, the most important of which was the Arsufi School in Bab Makkah Al-Mukarramah, influenced by the ancient schools that appeared in the rest of the regions, especially Iraq , where the Nizamiyah School was founded by Nizam Al-Mulk Al-Seljuk.

المقدمة

ان دراستنا لأحد العصور القديمة ليست دعوة للعودة إلى الوراء بقدر ما هي محاولة للتعرف على اساس ثابت يمكن ان نركن اليه في بناء امتنا العربية الاسلامية , و للإطلاع على الأسلوب الذي اتبعه العرب المسلمون في القرن الخامس والسادس الهجري في تعليم ابنائهم .

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم صورة واضحة عن تطور التعليم في شبه الجزيرة العربية , اي كيف كان يتم اعداد الفرد العربي المسلم وتثقيفه من بداية حياته الأولى حتى يصل إلى اقصى ما يطمح اليه من التعليم .

ارتأيت إلى تقسيم هذه الدراسة إلى عدة مطالب , تناولت في المطلب الأول الجذور التاريخية للتعليم بشكل عام , تناولت في المطلب الثاني ارتباط التعليم بالحج في الحجاز المكان الجغرافي لهذه الدراسة , تناولت في المطلب الثالث اهم العلماء الذين برزوا في القرنين الخامس والسادس الهجري وتناولت في المطلب الرابع مصدر تمويل الحركة العلمية في الحجاز , وتناولت في المطلب الخامس اهم المدارس العلمية التي تأسست في القرن السادس الهجري .

اعتمدت على عدد كبير من المصادر والمراجع اهمها الرحلة لأبن جبير .

ومن الله التوفيق

تمهيد

ارتبط التعليم في جزيرة العرب بظهور الدين الإسلامي ، وكان من الطبيعي أن تكون مكة والمدينة المنورة أكثر أجزاء شبه الجزيرة العربية احتفاءً بالعلم ، ومنذ ظهور الإسلام ، أصبح التركيز على العلم سمته البارزة ، لأن الإسلام دين علم وأولى الآيات التي أنزلت ركزت على العلم كقوله تعالى : (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (١) . فكان الأفضل على كل مسلم ومسلمة تعلم القراءة والكتابة ، لكي يتمكنوا من فهم كلام الله ، وأن إدامة هذا الدين لا يكون إلا عن طريق القراءة والكتابة ... الخ . كذلك أكد النبي محمد (ﷺ) على العلم والتعلم حيث قال : (من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشرة أمثالها) (٢) .

وبعد معركة بدر الكبرى ، كان المسلمون بأشد الحاجة إلى الأموال أو الطعام ، لكن الرسول محمد (ﷺ) فضل التعلم على الطعام ، حيث قال ابن عباس : (كان) ناس من الأساري يوم بدر ليس لهم فداء فجعل رسول الله (ﷺ) فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة وبذلك شرع الأسرى يعلمون علمان المدينة القراءة والكتابة ، وكل من يعلم عشرة من الغلمان يفدي نفسه (٣) وقبول

النبي (ﷺ) تعلم القراءة والكتابة بدل الفداء ، دليل على أهمية العلم وبيان منزلة العلماء ، وبهذا يعتبر النبي محمد (ﷺ) أول من وضع حجر الأساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة وإن السبق في هذا للإسلام . والشواهد كثيرة في ذلك ، ولا مجال للحصر في هذه الصفحات .

لقد ساعد الإسلام الاتصال بالثقافات الأخرى ، لأن المسلمين كانوا من شعوب مختلفة ، فكان هناك اتصال بين مختلف الثقافات ، خاصة بعد الفتوح الإسلامية ، وما كانت تعج به البلدان المفتوحة من ثقافات مختلفة ، أثرت بشكل مباشر على نشاط الحركة العلمية داخل أرض الحجاز ، بعد ما كان التعليم في مكة يتم عن طريق الكتاتيب ، إلا إن أغلب سكان مكة كانوا من الأميين ، لكن في الإسلام ولأسباب التي ذكرت انطلقت أول مدرسة من دار الأرقم من بني الأرقم .

(١) سورة العلق ، الآية (١) .

(٢) الترمذي ، الجامع الصحيح ، ج ٥ ، ص ١٧٥ الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق همام، مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي المكتب الإسلامي، ط بيروت، ١٤٠٣هـ)، ج ٣، ص ٣٦٧ .

(٣) أبو شهبه ، د. محمد ابو شهبه ، السيرة النبوية في ظهور القرآن والسنة ، دار التعلم ، ط ٣ ، دمشق ، ج ٢ ، ١٩٩٦ هـ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

حيث كانت الدعوة السرية الأوائل المسلمين ، واستمر أسلوب التعليم في مكة عبر الحلقات سائداً لمدة من الزمن غير أن الحركة التعليمية في مكة نمت وتزايدت مما ساعد فيما بعد على ظهور التعليم المدرسي ، فأنشأت حول المسجد الحرام مدارس عدة أخذت على عاتقها بداية نشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف من تفسير وتأويل فضلاً عن الفقه واللغة ومن ثم مدارس تعليم الرسول الكريم محمد (ﷺ) الأحاديث أو ما سمي بالسنة .

ومثلما أشرنا ، ارتباط التعليم في جزيرة العرب بظهور الدين الإسلام ، وذلك من خلال حلقات الدرس التي كانت حول المسجد الحرام ، المسجد النبوي الشريف ، فذكر المؤرخون في كثير من المراجع إلى أهمية مكة وأنها المعقل الأول للتعليم ، كما ألف الكثير عن هذا الجانب الذي يعد ميزة تميزت بها مكة المكرمة من خلال العصور الإسلامية ، إذ شهدت مكة نقلة نوعية في مجال التعليم وزادها رقياً توافد حجاج بيت الله الحرام من كل حذب وصوب وكانوا عندما يأتون لأداء هذا الركن يتزودون بالعلم ويعلمون فساهموا في نقل المعارف والعلوم المختلفة. أما دور الصحابة الأجلاء كان واضحاً في نشأة التعليم في مكة ، فقد ساروا على نهج المعلم الأول معلم البشرية (محمد بن عبد الله) فازدحمت أروقة المسجد الحرام بحلقات التحفيظ أو الحديث

وأصحاب الفتوى وغيرها وقد أشار أحد الباحثين إلى أنه مع بزوغ شمس الإسلام شرع المسجد الحرام يجمع بين دور العبادة والتعليم ، فنشأت حلقات العلم ، وأخذت المدارس الأولى تظهر في منازل حول الحرم الشريف^(١) .

(١) فاروق بنجر التعليم في مكة ، مجلة أضواء ، العدد الرابع ، ٢٠٠١م ، ص ٥ .

المطلب الأول : ارتباط العلم بالحج في مكة والمدينة

إن الرغبة في العلم كانت متوفرة في مواسم الحج ، ولاسيما عند طلاب العلم النجباء الذين تعوذوا الأسفار حبا لسماع وتحصيل معارفهم على عالم أو علماء في جميع الأنحاء وهؤلاء كانوا كثرة قدروا العلم في أهله حق قدره ، فأحبوه ، وأحبوا سماعه على أئمتهم المشهورين بنبوغهم ، وعلو قدرهم ، وكثرة معارفهم ، ودقة علومهم تدريسا وتحديثا وتصنيفا^(١) . وليس أدل على حرص العالم أو المتعلم على العلم من إن بعضهم كان إذا فقد كتابا ، ولم يستطع الوصول إليه أو الحصول عليه نادي يوم الحج عليه فيخبره من علم به^(٢) ، فكان للحج دور كبير في تفاعل الحركة العلمية من خلال روادها العلماء الذين التقوا في أمكنة مشاعره المشهورة وأزمنة شهوره المعلومة ، والتقاءاتهم هذه كانت في جميع تزامن في مكان قد لا يتوفر لبعضهم الاجتماع ببعض في غيره^(٣) ، ولعل مشروعية الحج انطلقت من فرضية أدائه على من توفرت فيه شروطه إلى وجوب الاستفادة من منافعه الكثيرة التي تحقق ما تهفو إليه نفس المؤمن في دنياه وتستتوي فؤاده في أخراه ، وهذا مدرك من قوله تعالى ((وليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وطعموا البائس الفقير))^(٤) ومن يتدبر أوامر الله تعالى في هذه الأيام يلح أول وهلة أنها للوجوب . ما بالك بمن يقف على معانيها ؟ إنها تمتد ببلاغتها إلى مدارك أولي الأبواب لتتناول كنه الحج وأسراره وفروضة وواجباته في مناطق مشاعره ، زيادة على منافع المسلمين التي تخص جميع مناحي شؤونهم الدينية والدنيوية ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وثمار هذه المنافع فلاشك كانت وراء حكمة مشروعية الحج الذي كان بأيامه المعدودة وأمكنته المحدودة بمثابة منتدى عام ضم جموع المسلمين من كل حذب وصوب على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، وقد اجتمعوا على رباط واحد وهو رباط الدين وأنعم به من رباط وحدهم وجمع شملهم ، وعلمهم نبذ الفرقة وراء ظهورهم

(١) ينظر: الأهواني ، أحمد التربية في الإسلام، وملحق به الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ، لأبي الحسن القابسي، وآداب المعلمين لابن سحنون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٠ .

(٢) ينظر: البنتوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية، المطبعة الجمالية ، ٢٥ ، مصر، ١٣٢٦ هـ ، ص ٢٠ .

(٣) ينظر : ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن ابراهيم اللواتي (ت ٧٧٩ هـ) ، رحلة ابن بطوطة ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٩٣٤ م ، ص ٦٠ .

(٤) سورة الحج ، الآية : (٢٨) . يراجع حسنين محمد مخلوف تفسير ٢٣٥٠ .

وإحلال المودة والرحمة والعطف بين صفوفهم ، من حيث تحويل سلبيات أفكاره أو تصنيفاته إلى إيجابيات كانت في صالح الحركة العلمية نوراً وازدهاراً .

وأيضاً كان من ثمار هذه اللقاءات أن تبادل كل حاج مع أخيه خبراته التي اكتسبها من حضارة بلاده التي عاش فيها ، وهذه الخبرات أنواعها شتى من علوم أو فنون كانت أوقع وأكثر نفعاً للمستمع أو الدارس ، إذا كان المسمع أو المدرس ممن اشتهروا بنبوغهم فيها أداء أو تدريساً وتحديثاً .

والعلوم المناطة بالدراسة يومئذ كانت العلوم الدينية والعربية وأما العلوم العقلية ودراستها فقد قل المنشغلون بها في موسم الحج وغيرها ^(١) . فقليلاً ما يذكر المرخون أن عالماً درس الشعر أو المنطق أو الفلسفة من سائر العلوم العقلية ^(٢) ، بخلاف العلوم الدينية أو العربية ومدارسها فقد كان مألوفاً أن يردد المؤرخون ، رجال كتب الوفيات دائماً في حديثهم عنها قائلين : (وفيها توفي ... وكان شيخاً جليلاً وإماماً عالماً فاضلاً... منعكفاً على العبادة ... والاشتغال بالله تعالى ... سمع من.... وتوفي أو الإمام الزاهد نشأ بمكة ورحل في طلب الحديث... وسمع من... وكان شيخاً عالماً ... وعارفاً بالله تعالى... وسمع من ... وكان شيخاً عالماً ... وعارفاً)) ^(٣) .

وتألق الحرمين الشريفين في حلقاتهما العلمية برواد هذه الحركة وتباين معارفهم لم يكن من خلال من تحلقوا فيها من أشهر الدارسين والمدرسين والقارئین والسامعين والمسمعين ، بل كان أيضاً من خلال توفير الكتب ونسخها ، وبخاصة في وقت لم تعرف فيه المطابع حينئذ ، ولولا عملية النسخ ما حفظت الكتب ولا بقيت حتى يومنا هذا ، ولا خرجت إلى رواد هذه الحركة محققة ، ومقارنة بأصلها ، ونشاط هؤلاء بلا شك قد أسهم في ازدهار هذه الحركة ، ومع أن المصادر قد أغفلت تواجدهم بأهم المراكز العلمية بمكة ، كالرباطات والمدارس ^(٤) ، إلا أننا نستبعد

وجودهم فيها حيث توافرت فيهما الكتب ، لأنهم أيضاً كانوا بالمسجد الحرام فيها شاهدتهم ابن جبير بجوار الكعبة الشريفة .

(١) بكر، سيد الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، الكتاب الجامعي ، (رقم ٦) ، تهامة، جدة ١٤٠٢هـ.

(٢) التجيبي ، يوسف (ت ٧٣٠ هـ) ، مسفاد الرحلة والاعتراب ، تحقيق عبد الحافظ منصور ، ليبيا ، الدار العربية للكتاب ، ١٣٩٥ هـ ، ص ٥٢ .

(٣) ابن تغري بردي ، ابو المحاسن جمال الدين يوسف (٨٧٤ هـ) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، ط ١ ، القاهرة ١٩٣٢ م ، ص ٢٢ .

(٤) الجزيري ، عبد القادر بن محمد بن ابراهيم الانصاري ، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة ، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٨٤ هـ ، من ٤٠ .

بوفرة أعدادهم عندما دخل البيت الكريم في حجه عام ٥٧٩ هـ وعندما وصف الكعبة وما يتصل بجدرانها من مصاطب قال : ويجلس فيها - أي المصاطب - النساخون والمقرئون والحرم محقق بطلقات المدرسين وأهل العلم^(١) .

إن المتتبع للحركة العلمية على طريق ركب الحجيج ومنازله يرى إلى أي درجة وصلت في نموها وثرائها وزيادة معارفها من خلال مشاعل نورها من العلماء والخطباء والوعاظ الذين أسهموا في ازدهارها على طريق الحاج ومحطات نزولهم ، ونذكر منهم شيخ حران^(٢) ، (ت ٦٢٢هـ) ومعلوم من القابله وصفاته العلمية العديدة أن الفقيه فخر الدين أبو عبد الله محمد بن القاسم الحراني (عالم مكة وخطيبها وواعظها الذي برع في معارف دينية شتى وبخاصة اشتغاله بمذهب الإمام أحمد حتى بر فيه أقرانه ، وجمع تفسيراً حافلاً في مجلدات كثيرة أهلته لأن يكون في صدارة الفقهاء والتدريس والفتيا ، وزيادة على إخلاصه في كثرة عظاته التي لا يمل عن التذكير بها في أوساط الحجيج وخطبه المشهورة المنسوبة إليه في طريق حجه ذهاباً وإياباً ، وفي عودته إلى بغداد جلس بباب دار للوعظ بعد وفاة شيخه أبي الفرج الجوزي^(٣) . لقد تألفت دعوته كغيره من العلماء على منازل دروب الحاج زيادة على تواجده بين الحجاج في الحرمين وأمكنة المشاعر واعظاً ناصحاً ، مرشداً^(٤) .

(١) ينظر : الجوهرى ، إسماعيل بن حماد (ت ٢٩٣هـ) . (الصباح) تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عطار القاهرة ١٣٩٩ هـ .

(٢) بنظر : ياقوت الحموي ، شهاب الدين بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٣ م ، ج ٢ ، ص ٦٠ .

(٣) ينظر: ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مؤسس الأعلمي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧١ م ، المقدمة ن ص ٥٧ .

(٤) ينظر : الذهبي ، محمد بن احمد بن عثمان ، (ت ٧٤٨ هـ) ، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، ط ٢ ، لبنان ، ١٩٨٩ م ، ج ٣ ، ص ٦٥ .

إن المتتبع للحركة العلمية في أرض الحجاز يراها على أشدها في القرنين الأول والثاني ، أما القرون الأخرى الثالث والرابع والخامس والسادس فهي مرحلة متدنية نسبياً سببه سوء الوضع السياسي والتدخلات الخارجية أي تعرض الخلافة العربية الإسلامية إلى عدة هجمات خارجية بالإضافة إلى العمليات الانفصالية الداخلية المتمثلة بالفاطميين وغيرهم كل ذلك على حساب الحركة العلمية ، لذلك تلاحظ أن هذه الحركة ارتبطت في القرن السادس الهجري بشكل أو بآخر بالحج وروافده المختلفة ، وأصبحت هذه المدة بصيص أمل لنهضة فكرية حقيقية برزت بشكلها النهائي في القرن السابع والثامن ثورة فكرية حقيقية ، حيث المدرسة الشهابية ^(١) ، والشيرازية ^(٢) والجوبائية ^(٣) الخ .

ان مراحل التعليم عند العرب في القرن الخامس الهجري قريبة جداً من المراحل الاربعة المعروفة من التعليم (التعليم الابتدائي ، التعليم الثانوي ، العليم الجامعي ، الدراسات العليا) .

صحيح انهم لم يضعوا الحدود الفاصلة بين مرحلة واخرى كما هو متبع في العصر الحالي لكنهم اتبعوه في تعليمهم ، حيث يرتبط بين مراحل التعليم هذه وبين المراحل التي يمر بها طالب العلم بدءاً ، فقد وجد التعليم الابتدائي في الكتاب اذا يتلقى التلميذ مبادئ هامة في الموضوعات

اما التعليم الذي يشبه المرحلة الجامعية في الوقت الحالي فقد وجدوه في دكاكين الوراقين ومنازل العلماء إلا ان تعليم ابناء الخاصة فيتم في قصورهم وتحت اشرافهم ورعايتهم ، وما يجري على الرجال لا يجري على النساء ، اذ كان عدد النساء المتعلمات قليل جداً قياساً بالرجال ، فقد كان

تعليم المرأة داخل منازلهن عن طريق احد اقاربهن او معلم خاص ، ولم يكن يذهبن الى الكتاتيب بالرغم من تأكيد الاسلام على التعليم (٤) .

ومع ذلك لا يمكن إهمال البذرة الحقيقية التي ظهرت في القرن السادس الهجري بعد فترة طويلة من قرون الضياع التي عاشتها الأمة ، لكنها ارتبطت بوجود الحرمين الشريفين ، ومواسم الحج والعمرة .

(١) اسسها الملك المظفر الأيوبي شهاب الدين غازي وأوقفها على المذاهب الأربعة ورصد لها أوقافاً كثيرة متفرقة . ينظر : واقع الحجاز في مرآة الشعر، ص (٦).

(٢) وكان مؤسسها من أهل شيراز وقد أشرف عليها الشيخ إبراهيم العريان وقد أقام بها مدة خمسين سنة وقام بترميمها وعمارته كما اشترى نخلاً وأوقفه عليها . ينظر : واقع الحجاز في مرآة الشعر ، من (٦) .

(٣) نسبة إلى جوبان بن تدوان وقد أسسها سنة ٧٢٤ هـ . ينظر : واقع الحجاز في مرآة الشعر، ص (٦).

(٤) شلبي ، احمد ، التربية الإسلامية ، نظمها ، فلسفتها ، تأريخها ، ط ٧ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٧ م ، ص ٢٠ .

اهم علماء القرن الخامس والسادس الهجري في الحجاز

الزمخشري

أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري ، ولد سنة (٤٦٧ هـ) وهو إمام في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، كان إمام عصره ، سافر إلى مكة وجاورها ، فصار يقال له : جار الله ، توفي ليلة غرة عام (٥٣٨ هـ) (١) . وله الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل وهو في تفسير القرآن الكريم أسس البلاغة وهو من أشهر كتب اللغة ، أطواق الذهب في المواعظ والخطب ، أعجب العجب ، خصائص العطرة الكرام البررة ، الحقائق في غريب الحديث المفردات في غريب القرآن ، المفصل في صناعة الإعراب ، النصائح الكبرى، المحاماة المسائل النحوية ، المستقصى في أمثال العرب المفرد والمؤنث في النحو ، وفي تفسير الحديث . صنف كتاب الفائق ، وله من منشور الكلام ما يشف من عبقرية وغرارة علم وحسن فهم وإدراك وذلك نحو قوله: استمسك بحبل مؤاخيك ما استمسك بأواخيك واصحبه ما صحب الحق وأدعن ، وحل مع الله وطعن (٢) .

(١) أحمد بن علي العلبي :

الإمام المقرئ والمحدث ، ومن خلال حجاته الكثيرة ومشاركته من خلال ما ييبته من معارفه بحرمي مكة والمدينة وأمكنة المشاعر ، واستفاد منه أخوانه الوافدين والمجاورين وأهالي الحرمين ، وطلبة العلم أيضاً بالرباطات والمدارس وغيرهما وتوفي بعد أن شهد عرفة محرماً في عشية الأربعاء يوم عرفة في أرض عرفة ، وحمل إلى مكة قطيف به ، ودفن يوم النحر سنة (٥٣٣ هـ) (٣) . وإذا فقدت الحركة العلمية أحد مشاهيرها فقد بقي ازدهارها على يد إخوانه الأفاضل في العام نفسه الذي توفي فيه العلبي السابق ذكره .

(١) ينظر الذهبي سير أعمال النبلاء ، ج ٢ ص ١٥٥ .

(٢) ابن العماد ، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (١٨٩ هـ ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، بيروت ، ط ٢ ، لبنان ، ١٩٧٩ م .

(٣) ينظر: سليمان بلاد الحجاز منذ بداية الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، من منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري ، مطبعة دار الأوفست بالرياض ، ١٤١٤ هـ ، ص ١٠١ .

(٣) الحافظ :

أبو الفرح عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي البكري الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) وهو الذي أذاع صيته وكثرت مواعظه في موسم الحج سنة ٥٥٣ هـ . الذي بث مسموعاته عن شيخه بعد موته ، وابن الجوزي تعددت أنشطته بالحرمين والمشاعر وتصدية لسائر البدع السائدة بالحرمين وما كان عليه المسلمون من خلق لا يتناسب مع هذا الدين و قدسية البلد الأمين ، وقد ذكر : (حجبت إلى بيت الله فامثلاً قلبي منه هيئة أو رهبة ويواصل فيقول : كنت أنظر إليه - أي إلى البيت تارة بعين الهيئة. فيشتد تعظيمي له ، وتارة بعين لطف مالكه ، فازداد بالبيت أنساً أي أنس العبد ببيت سيده ، ثم يواصل حديثه عن أهل هذا البلد وهو في أشد العجب من سوء تصرفهم ، وقبح ملكهم قائلاً فسبحان من أسكن حرمه مثل أولئك ولم ينس عبيد مكة في سلبهم الأموال الحجيج) (١) .

(٤) جعدة القطار الشافعي.

(٥) الشريف الغزنوي الحنفي.

(٦) عمر المقدسي الملكي.

(٧) أبا بكر الطوسي.

(٨) يحيى الزياتي.

(٩) شداد بن المقدم .

هؤلاء برزوا في موسم حج عام (٥٥١ هـ) وتآلقوا بين أوساط الحجيج وعظماً ونظماً وإرشاداً وعلماً (٢) .

(١٠) عبد السلام بن عتيق.

(١١) الشيخ أبو الطاهر بن عوف.

هؤلاء برزوا في حج عام (٥٥٠ هـ) (٣) .

وممن نالت الحركة العلمية على يديه تقدماً أيام الحج ، عمر بن عبد الله السري ، الذي حضر حاجاً في عام (٥٥٥ هـ) واستفاد منه الوافدون إفتاءً ووعظاً وتوفي في عام حجه سنة (٥٥٥ هـ) (٤) . و من برز من العلماء في المدة موضوع البحث ، مفتي الحرمين سليمان بن خليل العسقلاني مكنى بأبي الربيع وملقب بنجم الدين ، من مفاده أنه حدث بالكثير ، ودرس وأفتى وألف كتاباً مفيداً في المناسك ، وأنه كان عليه مدار الفتيا بأيام المواسم (٥).

(١) ينظر: سليمان بلاد الحجاز ص ١٠٤ .

(٢) ينظر: الجزيري درر الفوائد المنظمة ، ص ٢٦١.

(٣) الفاسي، تقي الدين محمد بن احمد (ت ٨٣٢ هـ) ، شفاء الغرام باخبار البلد الحرام ، ج ١ مكة المكرمة ، ١٩٥٦ ، ص ٣٤٥ .

(٤) ينظر: الفاسي، العقد الثمين، ج ١ ، ص ٣٠٩ .

(٥) ينظر: ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٥ .

ولم تكن مكة المكان الوحيد التي احتضنت الحركة العلمية بل شاطرتها المدينة المنورة هذه المكانة المتميزة ، ففي حرم رسول الله (ﷺ) نبغ العديد من رواد البلاغة نذكر منهم ، صدر الدين الأصبهاني رئيس الشافعية ، الذي ورث العلم أيضاً عن أجداده كابراً عن كابر ، وتميز بكلمات كان يرددها في خطبه قائلاً :

هاتيك روضته تفوح نسيماً . (صلوا عليه وسلموا تسليماً)

وتعجب من حاله إمام المقام النبوي قائلاً : عجباً لئلا لكن الأعجم كيف ينطق عند أفصح العرب وبعد عطائه التي طاشت لها الباب الحاضرين ، تهافتت عليه الأعاجم بالتوبة إلى الله تعالى فقال ابن جبير: فما رأيت أكثر دموعاً ولا أكثر خشوعاً من تلك الليلة (١) .

لذلك نستطيع القول بأن العلماء والقضاة وغيرهم قد ساعد على ازدهار الحركة العلمية أثناء مواسم الحج ومن لم يساهم بعلمه فقد ساهم بماله ، من حكام المسلمين وأهل الخير ومن أثريائهم .

أما روافد الحركة الاقتصادية بالإضافة إلى الذي ذكر فهي كثيرة منها : الأمير عثمان بن علي الزنجيلي ، والأمير طاشتكين بن عبد الله المقتفوي أمير الحج العراقي ، وأمراء العجم الخراسانيين ونساء معروفات بالخواتين من ذكرهم سابقاً ، وهؤلاء حملوا معهم مالا حصر له من أجل رفد العلم واستمراره بين العلماء وطلابهم (٢) .

١. ابن جبير ، محمد بن احمد ابو الحسين (ت ٦٢٤ هـ) رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لات .

٢. الفاسي ، المصدر السابق ، ص ٣٤ _ ٣٥ .

المطلب السادس الحلقات العلمية والمدارس

كانت الحياة العلمية في الحرم المكي نشطة آنذاك ، وقد بقي التعليم في مكة على وتيرته التي ورثها من القرون السابقة تتلخص في طلب العلم في حلقات الدروس التي ينظمها العلماء في المسجد الحرام ، حيث بلغت عدد حلقات التدريس إلى الفترة موضوع البحث (١٢٠) مائة وعشرون حلقة مما يؤكد اهتمام المكيين بتلقي العلم وتلقيه ، واستمر أسلوب التعليم في مكة عبر الحلقات سائداً فترة من الزمن غير أن الحركة العلمية في مكة نمت وتزايدت مما ساعد على ظهور التعليم المدرسي ، فقد حظيت مكة المكرمة باهتمام بالغ عند ظهور المدارس لما لها من مكانة عظيمة في قلوب المسلمين ودور ملموس في إثراء الثقافة الإسلامية .

إن المدارس الأولية كان قد أنشأها محسنون الإيواء الطلبة أو تدريسهم ، وفي بعض دور العلماء الذين كانوا يمنحون طلبتهم دروساً خاصة ، لقد تأثر نظام التعليم في مدارس الحجاز إلى حد ما بالمدارس النظامية ^(١) ، وهي أول مدرسة أنشأت ، وإن كان هناك مدارس سبقتها ، إلا أنها من أشهرها ، لكونه جعل الدراسة فيها مجانية وفرض الأرزاق للطلاب .

أما في الحجاز فقد ظهرت المدارس الأولى في الربع الأخير من القرن السادس الهجري ، أقدمها

(١) مدرسة الأرسوفي بباب العمرة في مكة المكرمة، ومؤسسها عبدالله بن محمد الأرسوفي وقيل أنها تأسست سنة (٥٧١هـ) .

(٢) مدرسة الزنجيلي وتأسست عام (٥٧٩هـ) في مكة المكرمة أيضاً .

(٣) مدرسة طاب الزمان وتأسست سنة (٥٨٠هـ) ، ثم توالى إنشاء المدارس عبر العصور الإسلامية المتعاقبة ^(٢) .

ومن يعتبر القرن السادس الهجري البداية الحقيقية لحقبة زمنية شهدت إنشاء أولى المدارس بمفهومها الحديث ، في مكة المكرمة ، هذه المدارس ضمن بناء وعلماء وطلاب

(١) مدرسة في بغداد أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك الحسن بن علي الملقب بنظام الملك قوام الدين الطوسي، سنة (١٥٧هـ) خرجت علماء جهابذة ينظر الفاسي، العقد الثمين ج ١ ، ص ٢٨

(٢) فاروق بنجر، مجلة أضواء ، العدد الرابع ، ص ٥ .

والفترات اللاحقة توالى فيها إنشاء المدارس حتى تجاوزت الثلاثون مدرسة بالإضافة إلى الأربطة الموقوفة لسكنى طلبة العلم الوافدين والمجاورين ، وتكوين المكتبات وخزائن الكتب والمخطوطات ثم ظهور المكتبات التجارية حول المسجد الحرام (١) .

بما أن الحركة العلمية في الحجاز لم تكن مقصورة على أهل الحجاز وبما أنها امتازت بالعالمية ، وساهم فيها كل المسلمين على وجه المعمورة (عرب فرس أتراك....) ، فالسؤال أي لغة كانت سائدة في هذه المدارس بوجه خاص وأي لغة امتازت بها الحركة العلمية في الحجاز ...

والجواب على ذلك اللغة العربية هي لغة المدارس ولغة الحركة العلمية ، لأن الإسلام أنزل بلسان عربي والقرآن أنزل بلسان عربي ، فكان حتمياً على غير العرب تعلم اللغة العربية ليفهموا هذا الدين ليفهموا أصوله ، شرائعه الخ ، لذلك ساعد الدين الإسلامي على ازدهار وتوسع اللغة العربية وانتشارها في كل البلدان خاصة المفتوحة.

أما اللهجة التي انتشرت في مدارس الحجاز ، فهي اللهجة الحجازية ، تحدث بها أهل مكة وسكانها كذلك تحدث بها سكان المدينة والطائف وجدة (٢) ، فمنذ العصر الذي سبق الإسلام أقيمت الأسواق الأدبية التي أقيمت في مكة قبل الإسلام ، أثر عظيم في إثراء لغة قريش وشيوعها ، وعندما جاء القرآن الكريم باللغة العربية لغة قريش سادت لهجة أهل مكة غيرها من اللهجات بما كفل لها القوة والتفوق ، وكانت أسواق مكة أيضاً مجالاً للنشاط الاقتصادي والاجتماعي والفكري ، وتبادل الآراء مما أضاف مادة خصية للهجة أهل مكة وعلى مر العصور ، أثر الاختلاط السكاني الذي ساد مكة في لغة أهلها العربية فكثر فيها الدخيل من الألفاظ الفارسية والتركية والهندية ، وفي العصر موضوع البحث الذي تلاه ونتيجة للحركة التجارية المزدهرة التي تسود موسم الحج يجيد الكثير من أهل مكة العديد من اللغات كالفارسية والهندية والأردو (٣) ، لذلك يمكن القول بأن ثقافة مكة تأثرت بثقافات الحجاج والمعتمرين اللذين يتوافدون عليها سنوياً وبالتالي فهي تملك تراثاً ثقافياً غنياً .

(١) محمد فالح الجهني ، مجلة المعرفة موجز تاريخ مكة والمسجد الحرام في عين الزمن، العدد ١٥ ١٥ سبتمبر ٢٠٠١م ، ص ٧.

(٢) ينظر: عبد الرحمن صالح عبد الله الجذور التاريخية للتعليم السعودي، تاريخ التعليم في مكة، دار الشروق، ١٩٨٢م، ص ٥٩-١٠٥

(٣) ينظر: عبد الرحمن صالح ، المصدر السابق ، ص ٥٩ _ ١٠٥ .

أما مادة هذه المدارس أو الحلقات التي سبقتها والكتاتيب ، كلها تدرس العلوم والمعارف ذات الصلة بالدين حاضن الحضارات التوجه في هذه المدارس نحو العلوم النقلية لا العقلية ، لذلك نحن تجد أن جمهور الفقهاء والقراء والحفاظ والمحدثون والمفسرون في المساجد والجوامع يتحاورون ويناقشون بعضهم البعض لكن علماء العقل كانوا يجلسون في بيوتهم مشغولون بأدواتهم وآليات أفكارهم ، هكذا كان توجهات الحركة الفكرية للحضارة الإسلامية ^(١) . وما أود التنويه إليه في هذا الصدد أن مدارس هذه المواد النقلية سواء في حلقات علمية حامية أو مناظرات حادة دارت بين علماء أفاضل مشهود لهم في عصرهم من أقرانهم وهم مذكورون ضمن مصنفات بعضهم ، كانوا يبحثون في هذه أو تلك ، مسائل عقائدية كثيراً ما كان يدور حولها الجدل ، وعلى الرغم من كثرة النقاش وطوله وشدة احتدامه ، لكن في النهاية كانوا يخرجون منها على وفاق لا شقاق ، اعتصاماً بحبل الله المتين وسنة نبيه الكريم) ، ولا بد من التأكيد أن الحلقات العلمية والمناظرات في الحرمين الشريفين خلال مواسم الحج كانت مستمرة ولا تنقطع ، وكانت هذه الحلقات تتأرجح زيادة أو كثرة تبعاً الشهرة الشيخ القائم على الدرس ، ولا سيما كبار العلماء المشهورين بنبوغهم وذيوع صيتهم ، وكثيراً ما كان بدور البحث عنهم والاستدلال عليهم من طلبة العلم فإذا حجوا كانوا متحلقين في حلقات علمية ، رغبة في تحصيل معارفهم على أيديهم وسط الجو الروحي الذي أظلمهم بالحرمين الشريفين إضافة إلى مضاعفة الثواب من الله تعالى لكل عمل يؤدي فيهما ^(٢) .

(١) عبد الرحمن صالح ، المصدر السابق ، ص ٥٩ _ ١٠٥ .

(٢) ابن جبير ، الرحلة ، ج ١ ، ص ٨١ .

الخاتمة

لم تكن الكتاتيب منتشرة في شبه الجزيرة العربية (الحجاز) ولم تكن القراءة والكتابة معروفة إلا على نطاق ضيق جداً ، وقد شجع الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) منذ بداية الدعوة صحابته على تعلم الكتابة والقراءة ، كان المسجد أول مكان للدعوة والتعليم والارشاد ، هو أول مدرسة جماعية منظمة لتعليم الصغار والكبار على حد سواء ، وضل المسجد يؤدي دوره التربوي والتعليمي حتى بعد ظهور المدارس والمعاهد وانتشارها .

كانت هناك امكنة اخرى للتعليم قبل ظهور المدارس مثل منازل العلماء ودكاكين الوراقين والاربطة إلى ان ظهرت المدارس في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري .

المصادر والمراجع

القران الكريم

(١) الأهواني ، أحمد التربية في الإسلام ، وملحق به الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ، لأبي الحسن القابسي، وآداب المعلمين لابن سحنون ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٨٠ .

(٢) ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن ابراهيم اللواتي (ت ٧٧٩ هـ) ، رحلة ابن بطوطة ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٩٣٤ م .

(٣) البنتوني ، محمد لبيب ، الرحلة الحجازية ، المطبعة الجمالية ، ٢٥ ، مصر، ١٣٢٦ هـ .

(٤) التجيبي ، يوسف (ت ٧٣٠ هـ) ، مسفاد الرحلة والاغتراب ، تحقيق عبد الحافظ منصور ، ليبيا ، الدار العربية للكتاب ، ١٣٩٥ هـ .

(٥) الترمذي ، الجامع الصحيح ، ج ٥ ، ص ١٧٥ الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق همام، مصنف عبد الرزاق ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي المكتب الإسلامي ، ط بيروت ، ١٤٠٣ هـ ، ج ٣ .

(٦) ابن تغري بردي ، ابو المحاسن جمال الدين يوسف (٨٧٤ هـ) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، ط ١ ، القاهرة ١٩٣٢ م .

(٧) ابن جبير ، محمد بن احمد ابو الحسين (ت ٦٢٤ هـ) رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لات .

(٨) الجزيري ، عبد القادر بن محمد بن ابراهيم الانصاري ، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة ، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٨٤ هـ ، من ٤٠ .

(٩) الجوهري ، إسماعيل بن حماد (ت ٢٩٣ هـ) . (الصاح) تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عطار القاهرة ١٣٩٩ هـ .

(١٠) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) العبر وديوان المبتدأ و الخبر ، مؤسس الأعلمي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧١ م ، المقدمة .

(١١) ابو داود ، سليمان بن الأشعث ، بلاد الحجاز منذ بداية الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، من منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري ، مطبعة دار الأوفست بالرياض ، ١٤١٤ هـ .

(١٢) الذهبي ، محمد بن احمد بن عثمان ، (ت ٧٤٨ هـ) ، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، ط ٢ ، لبنان ، ١٩٨٩ م ، ج ٣ .

- (١٣) ابن العماد ، ابو الفلاح عبد الحي الحنبلي (١٨٩ هـ ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، بيروت ، ط ٢ ، لبنان ، ١٩٧٩ م .
- (١٤) الفاسي ، تقي الدين محمد بن احمد (ت ٨٣٢ هـ) ، شفاء الغرام باخبار البلد الحرام ، ج امكة المكرمة ، ١٩٥٦ .
- (١٥) ياقوت الحموي ، شهاب الدين بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٣ م ، ج ٢ .
- (١٦) بكر، سيد ، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، الكتاب الجامعي ، (رقم ٦) ، تهامة، جدة ١٤٠٢هـ.
- (١٧) شلبي ، احمد ، التربية الإسلامية ، نظمها ، فلسفتها ، تأريخها ، ط ٧ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٧ م .
- (١٨) أبو شهبة ، د. محمد ابو شهبة ، السيرة النبوية في ظهور القرآن والسنة ، دار التعلم ، ط ٣ ، دمشق ، ج ٢ ، ١٩٩٦ هـ .
- (١٩) سليمان بلاد الحجاز منذ بداية الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، من منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري ، مطبعة دار الأوفست بالرياض ، ١٤١٤ هـ .
- (٢٠) فاروق بنجر التعليم في مكة ، مجلة أضواء ، العدد الرابع ، ٢٠٠١ م .
- (٢١) محمد فالح الجهني ، مجلة المعرفة موجز تاريخ مكة والمسجد الحرام في عين الزمن) ، العدد ١٥ سبتمبر ٢٠٠١ م .